مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

تحولات المكان في روائية عبد الرَّحمن منيفة بين الأصيل والدخيل
رواية "مدن الملح" أنموذجاً

د. محمد صالح مروشيه*

(تاريخ الإيداع 7 / 6 / 2017. قبل للنشر في 17 / 8 / 2017)

□ ملخّص □

يعدّ حضور المكان في روائيّة عبد الرَّحمن منيف من السمات الأساسيّة للرواية العربيّة الحديثة . ولا نبالغ إذا قلنا : إنّ المكان تحوّل إلى شخصيّة رئيسة في أعماله الروائيّة ؛لأنّه يشكّل الفضاء الرئيس للمكونات الروائيّة كلّها ، وهو الحاضن للوجود الإنساني ، لأنّه يتمتع بقابليّة التحوّل واختزال المفاهيم .

إنّ جزءاً من المشكلة التي يطمح البحث إلى الكشف عنها يقوم على تبيان التصدّعات المكانيّة الكبرى الناجمة عن السلوك الإنساني الذي لا يعطي القضايا الأخلاقيّة والإنسانيّة أهميّة في سبيل الوصول إلى غاياته الماديّة النفعيّة.

إنّ التحولات الكبرى للمكان في رواية (مدن الملح) كان نتيجة فعل البشر المدمّر للطبيعة البكر (ظاهرها وباطنها) ،فلم يأل منيف جهداً في الكشف عن الآثار النفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ،التي تعرّض لها الإنسان في الجزيرة العربيّة ، وفي الوقت نفسه نكتشف أيضاً أنّ المكان ترك تأثيرات في البشر ،فبدأ الإنسان يعش حالة من الاغتراب والضياع وفقدان الهويّة نتيجة التحولات الكبرى التي تعرّض لها المكان .

الكلمات المفتاحيّة: تحولات المكان– خماسية مدن الملح – عبد الرَّحمن منيف .

* أستاذ مساعد– قسم اللغة العربيّة– جامعة تشرين–اللاذقيّة– سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

Shifts of Place In Abdul-Rahman Munif's Narratives Between the Original & the Loan The Novel Cities of Salt: an Archetype

Dr. Muhammad Saleh Marroushyieh*

(Received 7 / 6 / 2017. Accepted 17 / 8 / 2017)

□ ABSTRACT □

The presence of place in Abdul-Rahman Munif's Narratives is one of the principal characteristics of the modern Arabic Novel. We do not exaggerate to claim that the place has changed into a central character in his prosaic works, because it represents the primordial space to all prosaic components, and it stands as the cradle of all human existence, since it enjoys the possibility of transformation and summarizing concepts.

Part of the problem that this piece of research endeavours to disclose depends on explaining the magnificent turbulances of place as a result of the human conduct which does not consider the ethical and human issues quite remarkably since it aims at achieving its totalitarian and materialistic interests at every cost.

The great shifts of place in the novel *Cities of Salt* emerge as the outcome of the destructive human behaviour toward the virgin nature (intrinsically and extrinsically), where Munif concurrently struggles to uncover the underlying psychological, sociological, political and economic consequences that the human being of the Arab Peninsula has been exposed to. At the same time, we conclude that the place has also left observable impacts on mankind; henceforward, man starts complaining from alienation, disorientation and loss of identity owing to the grand shifts manifested by the place.

Keywords: Place, Cities of Salt; Abdul-Rahman Munif.

***Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities; University of Tishreen, Lattakia, Syria**

مقدّمة

إنّ أهمية المكان في روائية عبد الرَّحمن منيف تتجسّد بوصفه مركز الأحداث ،وميدان الصراع بين الشخصيّات، بل الفضاء الرئيس لكل العناصر الروائيّة ، وهو حجر الأساس التي يقوم عليها بناء الرّواية وتطورها . إن المكان المتخيّل في الرّواية ليس هو المكان الواقعي حتى لو تشابهت ملامحه مع جغرافيا المكان الواقعي الذي نستمد بعض ملامحه ؛ لأن الفضاء الروائي مطلق ، أما المكان فأكثر تحديداً .المكان هو جزء أو بقعة في هذا الفضاء يقيم الراوي عليه بناءه ، ويستحضر شخوص روايته داخل بنية المكان ، ويمكن القول: " إنّ مجموع الأمكنة الروائيّة يشكّل الفضاء المكاني ،بحيث يعدّ المكان مكوناً أساسيّاً من مكونات الفضاء الروائي. الذي يتسع ليشمل العلاقات المكانيّة أو العلاقات بين الأمكنة والشخصيات والحوادث ، ويعلو فوقها كلّها ليصبح نوعاً من الإيقاع المنظم لها" [1] .

إن "منيف" لم يقصد مكاناً محدداً ،أو شخصيّة محددة بقدر ما هدف إلى تصوير حقبة بكل ما انتابها من ألوان التغيير والتّحوّل ؛لأنّ المطابقة بين المكان الروائي والطبيعي مستحيلة.

ولئن أردنا أن نتوقف عند رؤية (منيف)المتبعة في تحديد صورة المكان الروائي ،فإننا نجد"اهتمام عبد الرَّحمن منيف ينصبّ على المكان أو الفضاء بوصفه أساساً لبناء الأحداث والرؤى الفكريّة والجماليّة وبناء الشخصيّات، ولكنّه في الوقت ذاته يحاول جاهداً أن يعنى بالعناصر الروائيّة الأخرى، وخاصة عنصر الأداة التعبيريّة، وعنصر الشخصيّة" [2] .على الرغم من انتقاده للمكان الجغرافي في حياته الواقعيّة ، فهو إنسان منفيّ عن وطنه ، وعلاقته بالمكان علاقة رحيل مستمر.

أهمّيّة البحث وأهدافه :

تأتي أهمية البحث من أن المكان في روائيّة عبد الرَّحمن منيف يشكل جزءا أساساً من هندستها ومعماريتها ؛ لأنّ العمل الأدبي حين يفقد المكانيّة فهو يفقد خصوصيته وهويته.

وتكمن أهداف البحث في رصد التحولات الكبرى التي أصابت المكان فأدّت إلى خلخلة في البنيّة السكانيّة والطبيعيّة ، ة تاركة آثارها المدمرة على الإنسان والبيئة والمجتمع ومنتجة تصدّعات في البنية الزمانيّة والمكانيّة ،قادت إلى صراع حاد بين الأصيل والوافد في روائيّة عبد الرَّحمن منيف .

منهجيّة البحث:

يعتمد البحث على المنهج الوصفي لرصد ظاهرة التحوّلات المكانيّة في خماسيّة (مدن الملح) وتحليلها ،وتبيان الآثار الناجمة عن هذه التحولات الاقتصاديّة والسياسيّة و النفسيّة والاجتماعيّة والطبيعيّة بفعل ظاهرة الرحيل(الإبعاد)التي حدثت ولاسيما بعد اكتشاف النفط، ما أدّى إلى إنتاج مشهد فجائعي ، يماهي بين الشجر والإنسان في رواية (الأشجار واغتيال مرزوق)، وبالتالي بين إبادة ما في الطبيعة من حياة ،وإبادة الحياة ذاتها بمعناها الشامل ليعكس بذلك أثر المكان وتحولاته في صيرورة الإنسان ومصيره .

الثابت والمتحوّل في روائيّة عبد الرَّحمن منيف:

---

[1] **الفيصل، د.سمر روحي ،بناء الرواية العربيّة السوريّة،وزارة الثقافة ،دمشق، 2003 ،ص253.**

[2] **بوشعير،د.الرشيد،مساءلة النص الروائي في أعمال عبد الرحمن منيف ،وزارة الثقافة ،دمشق 2004،ص156.**

يحاول منيف في رواية "النهايات" أن يناقش وضع البادية العربية من قبل التصحّر ومن بعده ، قبل أن تغدو عالماً مجدباً ، وبعد أن غدت كذلك ، ثم ينتقل من خلال (مدن الملح) إلى المسألة النفطية والغزو الغربي المدمر ، إذن نحن أمام صورتين ، صورة البادية العربيّة وخطر التصحر ، والثانية صورة الجزيرة العربية الصحراوية (النفط وخطره في الانقلاب على مفهوم الثروة الوطنية) ثم النضوب دون أن تسهم الثروة المهدورة في نموج الحياة البديلة، أو في تقدم ما هو قابل للتقدم .

تبدو البادية قاسية وصعبة عند منيف ، ويبدو إنسانها . الصياد . قاسياً وماهراً ، وتبدو حرفة الصيد بديلاً عن أشكال الإنتاج الأخرى ، ولكن الصيد يقتل الحياة وقد يدمّر الطبيعة من خلال الصيد العشوائي ، وكلّما تقدّم الصّياد في المكان زادت مساحة التّصحّر ، وهو من خلال العلاقة السببية بين الصياد والتصحر يشير إلى أنّ الإنسان في آسيا العربية مسؤول أمام الحالة الجغرافية الماثلة ، وهو إذ يعلن عن موت (عسّاف) البطل الشاب، وعن موت كلبه ، يؤكد حتمية الموت القادم إلى أقطار هذا الجزء من العالم ، لا من موقع رفض المكان والبحث عن الوطن البديل ، بل من موقع تضخيم المأساة ، لتتمّ معالجتها قبل أن تفقد أساليب المعالجة جدواها .

" قال المختار : سوف ترانا واحداً بعد آخر ، نهوي على وجوهنا ... وتطمرنا الرمال وقد لا نجد من لا ينقط في حلوقنا قطرة ماء .... كان عساف مدفوناً بالرمل ، لم يكن يظهر إلا رأسه ، وفوق الرأس تماماً كان الكلب رابضاً .... كان يشكل سياجاً حول جسد عساف ، خاصة رأسه ... كان يحتضنه ... عساف مات قبل الكلب ... ربما هذا النسر جاء ليأخذ نصيبه منه ، وفي محاولة لحماية عساف ، مزقته بمناقيرها ... وهو يدافع عن نفسه ، وعن عساف " [1] .

يشحن منيف الرمال بدلالات رمزيّة ، فتبدو عنده خطراً محدقاً بأهل المشرق العربي (آسيا العربية) "وهي تشبه الوحل الذي تحدث عنه غسان كنفاني في رواية (أم سعد) إذ بيّن أن الوحل أصبح رمزاً لتقبل الواقع ، واقع الهزيمة والمنفى وهو واقع قاس سوف يأتي على اللاجئين الفلسطينيين إذا لم يتجاوزوا واقع العجز والهزيمة إلى التفكير باستعادة الحياة على أرضهم ، وتحريرها، وهي دعوة صريحة للثورة الشعبية التي تغنى بها الأدب العربي في مرحلة ما بعد 1967 عند الأدباء التقدميين " [2] .

أما منيف فإن المسألة عنده أعمق وأشمل ،إنّها غير طارئة بسبب قدوم محتل أجنبي كما عند كنفاني ، أو حالة تخلف كما عند هاني الراهب في رواية (الوباء) بل هي في صميم التكوين ، تكوين الأرض والإنسان العربيين". (2)
ويمكن القول :إنّها مسألة تحولات في بنية المكان من (صحراء،مدن ،واحات ،نفط)ن ولذلك ما طرأ على البنية السكانيّة والاجتماعيّة بفعل العامل الاقتصادي ،الذي ربط الإنسان بالمدينة (المصطنعة) الحديثة .

يؤكد (منيف) من خلال علاقته مع المكان، الأرض البادية ، الصحراء ، المدينة .... السجن ، وعلى عالم الحيوان : طيور ، ذئاب ، غزلان ، كلاب ، وعلى عالم البشر ، سجّان ، مثقف ، تقني ، أن المشكلة الأساسية هي هنا . في الوطن الأم في الإنسان العربي . بجغرافيته وتاريخيته ، فإذا ما نقل منيف إحساسه بالموت العارم الشامل ، وتنبأ به للإنسان والطير والحيوان والأرض ، فلأنه يريد حلاً يمنع الموت ويحيله إلى لحظة ولادة .

وهو في رواياته كلها يبحث عن هاجس الولادة ، ففي (شرق المتوسط) أشار إلى ولادة رجب بعد أن غامر في الغرب (فرنسا)على أنّها ولادة جديدة ، رجب السياسي المناضل المعذب المضطهد ، عاد ليحب الوطن بعقل جديد ، ليتابع مع الأطفال ، وفي (الأشجار واغتيال مرزوق) أعاد الحلم المهزوم لمنصور عبد السلام من خلال مشاركته في

---

[1] منيف. عبد الرحمن ،رواية(النهايات) ،المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط 10. بيروت1999 1995، ص110 .

[2] يونس،صلاح، المؤثرات الغربيّة في الرواية السياسيّة العربيّة،أكاديميّة العلوم الروسيّة، موسكو 1993،ص34-35.

الخارج ببعثة أثرية تدرس تاريخ البلاد ، وفي (حين تركنا الجسر) يعلن عن موت اليأس عند زكي النداوي من خلال رفضه الهدف القريب ونشدانه هدفاً آخر ، هدفاً بعد تحطيم الجسور وعبورها ،التي رمز بها إلى فعل التجاوز بعد العطالة.

وبناء على معرفة في العمق والاتساع ، اتّجه (منيف) إلى أرشفة البداوة الجغرافية التي سبقت قيام المدن المصطنعة الحديثة ، كما تنبأ بسقوط هذه البدائل الهشة القادمة من التنمية المظهريّة التي فرضها العلم الرأسمالي على دول الأطراف .

لقد أخذت مفاهيم البداوة أشكالاً مختلفة في شرق المتوسط (آسيا العربية ، بلاد الشام) بوصفها أنظمة سياسية فارقت من حيث منشؤها الاجتماعي والتاريخي تاريخيّة ابن الجزيرة العربيّة ، وفارقت في الوقت نفسه النظام السياسي الذي يقوم على منظومة (الحريّة) في صياغة المؤسسات، وفي تهيئة الأفراد للمشاركة في الحياة السياسيّة، التي يعدها منيف أساس كل تقدم . وفي مدن الملح احتلت آسيا العربية (بلاد الحجاز) المساحة الكبرى ، إذ البداوة فيها مركبة من التخلف الموروث ومن البنية السياسية السائدة .

وكان لمعرفة (منيف) بهذه البيئات دور حاسم في الانشغال بموضوع الصحراء وبواديها ، مركزها وأطرافها ، حاضرها ومستقبلها ، ولم يكن ليقف عند معرفته الأولى كواحدٍ من أبناء الجزيرة، بل قام بمراجعة المتون التاريخية للجزيرة ، وصلاتها بعالمها المحيط ، كما استدرك على نفسه، وعلى الأدباء المؤرخين بقراءة صور المكان وتضاريسه من منظور الخارج الذي يرى المكان الوطن منبع الثروة ، وقد شاركت السلطات القائمة (الخارج) رؤيته للوطن ، مكاناً مُستعاراً لها .

وعلى هذا الأساس تبدو مهمة الرّواية مركبة ، فهي تريد التحقيق في وضع الجغرافيا العربية في آسيا قبل الغزو الغربي (أوروبا ، أمريكا) ، وهي تريد إظهار هشاشة الحضارة المفتعلة للغرب ، وخاصة (الأمريكي) في هذه الجغرافيا ، وتريد أيضاً أن تظهر الفارق بين البشر في الشرق العربي ، وبين الناتج التقني الغربي ومصادرته لإمكانية التطور الطبيعي أو المنطقي .

لم يكن الخارج (أمريكا والغرب) ليقوى على الدخول بقوة لو لم يكن الداخل (الجزيرة) يعيش حالة الاحتضار ، ولا يمكن لأي خارج ما ، مهما كان مقتدراً أن يفعل شيئاً في داخل ما ، ما لم يكن ذلك الداخل قابلاً للاستقبال، أو قادراً على التلقي من خلال ثنائية (الأدنى والأعلى) ، لكن الموت المفاجئ كان قد جاء من الآخر ، فإذا كان التاريخ الداخلي لشعب (موران) قد توقف ، فإن التاريخ الخارجي . الشركات الغربية . قد بدأت تكتب تاريخها هي في (موران) وليس (لموران) الحق في أن تقرأ إلا هذا التاريخ الجديد .

لكن (منيف) لا يعلن الموت وإن رأى ما يدل عليه فهو يؤسس في داخل القارئ العربي . بعد أن يطلعه على مأساته والخطر المحدق به . فرصة جنينية للأمل ، وفي المواطن التي أعلن عن وصول الموت إليها كالطبيعة ، الشجر ، الطير .... الإنسان .... ، السلطان ..... يقول في الجزء الثالث على لسان (سند) أحد أبناء السلطان :

" أنا رايح وأقولها واسمعوها : ما أريد من هذه الديرة نواة ، وحقي وميراثي وصلني .... وإذا كانت عين فضة بها خير ، والناس بعدها عايشة فالفضل لهذا النخل ... " [1] .

فقد اتخذ من النخل هنا رمزاً للتأصيل . البيئة الأم . في مواجهة الدخيل . النفط . كعلاقة الداخل الأدنى بالخارج

[1] **منيف، عبد الرحمن ، رواية (مدن الملح) ج3 (تقاسيم الليل والنهار)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1997 ، ص137.**

الأعلى ، المدن المصطنعة كأنّه يشير إلى ثبات الأصول وجمالها ونعيمها ، وإلى هشاشة الدخيل وعجزه والتنبؤ بزواله، وكأنّه منذ بداية هذا الجزء (الثالث) قد تنبأ على لسان العرافة (نجمة المثقال) بأن شعب (موران) سوف يعلن عن ولادة جديدة :

" السبيل إذا وشك يفور : لكنّه لا بدّ في يوم من الأيّام أن يفور" [1] .

يؤكّد عبد الرّحمن منيف في (بادية الظّلمات) الجزء الخامس من (مدن الملح) أنّ الثبات الصحراوي الذي تعجز التغيرات الخارجيّة عن زحزحته وربطه بالمتغيرات الكبرى التي يعيشها العصر فذلك المدى الصحراوي وحده ، يشكّل الثبات الحقيقي ، الأقرب إلى رسوخ ، وقد انعكس بقوّة على الملامح الآدمية وعلى لون البشرة ، ولا يمكن أن تغيره أو تمحوه الأبنية الحديديّة والزجاجيّة العالية والتي غالباً ما تبقى فارغة لانعدام الحاجة إليها .

– التصدعات المكانيّة الناجمة عن الفعل البشري في رواية مدن الملح :

تتشكّل رواية (مدن الملح) من خمسة أجزاء تبدو من الخارج منفصلة عن بعضها ،غير أنها تتصل فيما بينها برابط شعوري يوحّد أجزاءها الخمسة وهي:(التيه)،(الأخدود)،(تقاسيم الليل والنهار)،(المنبت)،(بادية الظلمات).

تنطلق مدن الملح في جزئها الأوّل(التيه)من(وادي العيون)من فضاء ما يشكل نقطة تلاقٍ للقوافل التجاريّة ،فيبدو في فضاء مدن الملح(جدل المكان والحريّة بأكثر صورها البدائيّة– الأوليّة؟–وتكوينه للهويّة الجماعيّة ، وحفره لمياسم الكيان الفردي،وتشكيله للذات جسداً ونفساً ، بحيث يخلق التدخل فيه ، والاقتلاع منه ، وتدميره مأساة إنسانيّة كبرى) [2] ، لقد أظهر (منيف) من خلال مدن الملح القوى الناتجة عن الغزو الأمريكي إلى آسيا العربية ، وخاصة من لهم علاقة بالعمل المباشر ،كالفنيين في الحقول أو سائقي السيارات،ثم أظهر فئة الوسطاء والتجار ، ثم أظهر فئة تعمل في التوصيل اللغوي بين الأجانب (الغربيون) والأصلاء (العرب) تسمى فئة المترجمين ....

إذاً حدثت تصدّعات في البيئة السكانيّة والاجتماعيّة ، وحلت مهن أخرى ، وقد استحال المجتمع إلى ورشة من المهنيين لا تمت إلى الإنتاج الوطني المثمر بأيّ صلة " وكما حدثت تلك الصدوع في الجبهة الثقافية العربية – سوريا ومصر في إثر الصّدمة النابليونية 1798 – حدث الصدع هنا في شبه الجزيرة ، لكن ليس في السلسلة المعرفيّة ، وإنّما حدثت في الخريطة المعيشية والسكّانيّة ، وفي الرّكيزة الاجتماعيّة ، حدثت الانتقالة المفاجئة من نمطيّة العصر الوسيط ، بشكله الرّاسخ في بيئة الجزيرة ، إلى نمطيّة المجتمع الاستهلاكي في البضاعة وفي الحضارة والمعرفة وبناء الإنسان " [3] .

في إثر هذا الصّراع تبدو صورة الجزيرة ، مجتمعاً بدوياً ، لا يقوم على التواصل مع العالم من حوله ، ما تزال العزلة ترسم له الحدود ، ومن هنا أظهر (منيف) صورة الصيد بوصفها صورة دالة على نمط العيش ومستوى الفرد ، كما جسد مرابع السحر وليالي البوادي القائمة على تكرار الحوادث الشهيرة والنزاعات القبلية والتقاطعات التجارية ، كما عرض لكوارث البيئة وأزمات الوعي الجمعي ، والحياة الوادعة التي كان بدو(وادي العيون) يعيشونها في واحاتهم ،إلى أن جاء الغزو الغربي الذي قضى على براءة الإنسان وعلى عذرية المكان وحميميته ، جاء في الجزء الأول من مدن الملح . التيه . .

---

[1] **منيف، عبد الرحمن ، رواية (مدن الملح) ج 3 (تقاسيم الليل والنهار)، ص12 .**

[2] **سليمان،نبيل،فتنة السرد،دار الحوار،اللاذقيّة،ط 2 ،2000 ،ص147.**

[3] **ينظر :يونس،د.صلاح،المؤثرات الغربيّة في الرواية السياسيّة العربيّة ، ص 67–68**

" إنه وادي العيون ... فجأة وسط الصحراء القاسية العنيدة تنبثق هذه البقعة الخضراء كأنها انفجرت من باطن الأرض نأو سقطت من السماء ... بشر وادي العيون مثل مياهه إذا زادوا عن حد معين فلا بد أن يفيضوا ، أن يتدفقوا إلى الخارج ، فالهجرة لازمتهم منذ أمد بعيد ... وفي ليالي الصيف لا يكتفون بالجلوس حول دلال القهوة أو تبادل الأحاديث إذ تصيبهم حمى الغناء وفي هذه الليالي تنفجر الأفكار والأحزان والذكريات [1] .

سيطر الخراب على تلك الواحة البكر،ثم جاء التهجير والتدمير ،ويغد وهذا التحوّل فاجعة إنسانيّة كبرى للبشر ولتاريخ على الأرض.وانتقل الدمار" من المكان المادي إلى المكان الداخلي ، من البراني –الجواني ، ثم إلى الجواني وحسب. انتقل من اليقظة إلى حلم اليقظة والحلم. من الماء والقحط أيضاً إلى الصورة . من المشهد إلى الخلفيّة . من النور إلى العتمة،و من الفسيح إلى المركّز– لا المحدود –أو بالأحرى إلى المركوز في النفس" [2] .

وهكذا يتحول (وادي العيون) أمام هذا الدمار الكبير الذي طال الإنسان والشجر والحجر ليحلّ محله وادي العيون الجديد ، وادي العيون الأمريكاني "كانت الأشجار وهي تتمايل وتترنّح قبل أن تسقط تصرخ ،تستغيث ، تولول ،تجنّ تنادي نداء أخيراً موجعاً ، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرّع ،وكأنها تحتجّ أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد ، في محاولة لأن تنبثق ، لأن تنفجر مرّة أخرى " [3] وتبقى صرخة (متعب الهزال) التي يتردد صداها ، من دون أن يصغي إليها أحد " حسافا.....حسافا يا وادي العيون) [4] .

وهذا الذي أصاب وادي العيون من خراب ودمار وتهجير للبشر، شهدته موران وحرّان أيضاً .

ولا يقتصر دور الإنسان على الإسهام في زيادة الرقعة المتصحرة، بل يتجاوزه إلى إقامة المنشآت الجديدة التي أصبحت شيئا ثابتا يصعب فصله عن الملامح المتبقية للمكان رغم غرابة التحول وسرعته التي تشبه الحلم [5] .

لقد جاءت الشركات الغربيّة لتحوّل حران إلى مركز ومقر "مدينة اللعنة والنهاية ..... أيضاً" [6] .

وسرعان ما أصبحت"حرّان الأمريكان ،وحرّان العرب ،في الوقت نفسه، " وشتّان ما بين الحرانين..... إذا كانت حرّان (الأمير) مكاناً جاذباً لهم ، وللعمال والطامحين العرب خاصّة ، ومكاناً عدائيّاً طارداً للعمال في آن ، فإنّ حرّان العرب هي المكان الجاذب والطارد ، المكان العدائي للجميع " [7] .

تحوّلت حرّان إلى يباب ، أما موران فبقيت فترة طويلة حتى بعد قدوم الأميركان بلدة نائية ومنسيّة ، تكاد بالجوع والأوبئة والرمال أن تندثر ، ثم تنهض .يخافها الجميع(الحكام والأهل) . إنها مكان طارد للغرباء ، في قلب الصحراء تملؤها حكايات الجدات بالجن والعفاريت، بالأصوات الخفيّة والبروق ، وتملأ بشرها بالحيرة والخشية والترقب والصمت .

صورة موران القديمة تعود مرة أخرى إلى الظهور في الجزء الموسوم بـ(تقاسيم الليل والنهار) صحراء غارقة في الرمال والنسيان يتصارع أمراؤها قبل أن يؤسس (خربيط) دولته المبعثرة المتنازعة .يخاطبه أحد الأمراء محذراً "وهذي

---

[1] منيف،عبد الرحمن، (خماسيّة مدن الملح)ج1(التيه) ، ص9

[2] ينظر: باشلار،غاستون،جماليات المكان، ت(غالب هلسا)،المؤسسة الجامعيّة، بيروت 1984،ص186.

[3] منيف، عبد الرحمن ، خماسية مدن الملح ،ج1 (التيه) ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ،ط5، بيروت 1997،ص 105.

[4] المصدر السابق ،ص 124.

[5] صالح ،د.صلاح،الرواية العربية والصحراء، وزارة الثقافة ،دمشق، 1996،ص94.

[6] منيف، عبد الرحمن،خماسيّة مدن الملح، ج1 (التيه) ، ص188.

[7] سليمان،نبيل،فتنة السرد ،ص149.

موران غدّارة تأكل زادك وتنبش حدرك" [1] .

أصابت موران تحوّلات كبرى انتقلت من مرحلة الخيول الأصيلة ، مرحلة الصقلاويّة والحمدانيّة رمزي الثراء والوجاهة ،إلى مرحلة السّيارات والشّوارع العريضة .إنّه جدل الزّمان والمكان ، الزّمان الفاعل والمكان المنفعل بامتياز .إنّ هذا التّغيير الذي أصاب الإنسان والشجر والحجر، حصل بفعل الشركات الغربية الكبرى

إنّ التحولات المكانيّة في (خماسيّة مدن الملح) قضت على براءة الطبيعة البكر ،وامتدّت لتترك آثارها المدمّرة في الإنسان ، وهذا الرّؤية أكّدها (منيف) في أجزاء الخماسيّة كلها ،" حاولت في (التيه) أن أتصور شعباً يغادر ملامحه وحياته السابقة ،أن ينتقل من البداوة لا إلى الحياة المدنيّة، وإنما إلى المجهول، لقد حصل التغيير في البيئة الخارجيّة ، في القشرة ، أما الداخل،البداوة،فقد انكسر دون أن يعثر على بديل مقابل" [2] .

كان الناتج الجديد عن صفقة الغرب ، تمزقاً في البيئة الاجتماعية ، وأزمة في الروح وفي النفس واضطراباً عميقاً في مفاهيم الانتقال إلى الحضارة ، ومع الانتقال المشوّه تحدث القطيعة بين إنسان المشرق (الجزيرة) وبين عالمية . التاريخ . الحاضر . وقد فصل الكاتب (منيف) الحديث في هذا الموضوع في الجزء الرابع من (مدن الملح) تحت عنوان (المنبت) وفيه يقول على لسان غزوان الشاب الجديد الذي تربى في أحضان المرحلة النفطية :

" موران اللي بالك ، يا بابا تغيّرت ، انتهت ، ولازم الإنسان يعرف كيف يتصرف في المرحلة الجديدة ... يا باب وطن الإنسان حيث يكون قوياً ومؤثراً وقادراً ،الوطن ليس التراب ، أو المكان الذي يولد فيه الإنسان ، وإنما المكان الذي يستطيع فيه أن يتحرك ... هل تتذكر أم نسيت ؟" [3] .

لم يعلن (منيف) بشكل مباشر موقفه المعارض لمجتمع النفط ، على أنه مجتمع فرضته آلية النظام الرأسمالي الصناعي بصيغته الجديدة (الشركات المتعددة الجنسيات) ، أو فرضته مصالح الشركات المتعددة الأعراق ، فتشكلت هذه المجتمعات كصدمة للواقع وكخلاف مع التاريخ .

إن موقف (غزوان) موقف المنبت ، المنفصل عن الموطن الأم ، عن الشرق كله ، لكنه ليس ذلك الفرد الحضاري الذي أخذ من الغرب علمانيته وقوانينه ، بل أخذ منه ما يناسب حوائجه الرخيصة كجمع المال من دون دورة إنتاجية ، إنه غربي لا كما يريد الموطن ، إنما كما يريد الغرب لابن الشرق أن يكون غربياً بما يتناسب مع رؤية الغرب لعلاقته المستقلة بالشرق .

ولئن جسّد (غزوان)حالة القطيعة مع مجتمعه فإنّ (متعب الهزال)يعلن عن رفضه للأجنبي الذي لم يكتف بتغيير المكان ،بل عمل على تدميره، وينهض مهدداً" يا أولاد الزنى، يا أحجار القراني، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهّار" [4] .

وهذا ما دفعه إلى الاختفاء في عمق الصحراء لأنها الجذور التي ينتمي إليها،ويبحث عنه أبناؤه من دون جدوى ،ويتحوّل إلى أسطورة تجوب الصحراء، وتعلن العرّافة أنه ينام في مكان بعيد، وهذا المكان قريب من البحر ، وهكذا سيبقى سنين ، لكنّه سيعود ، وستكون عودته كريح عاصفة لا يمكن لأحد أن يقف في وجهها . وتظهر في وادي العيون الصورة النقيض لمتعب الهزّال المتمثّلة بابن الراشد الذي يستقبل البعثة الاستطلاعيّة الأولى ، ويعاضد من تلاها

---

[1] **منيف ،عبد الرحمن ،ج3(تقاسيم الليل والنهار) ،ص17،**

[2] **منيف ،عبد الرحمن ،الكاتب والمنفى، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر،ط 2 ،بيروت،ص221.**

[3] **منيف،عبد الرحمن، ج4(المنبت)،ص26.**

[4] **منيف،عبد الرحمن ،مدن الملح ،ج1 (التيه)، ص102.**

قبل أن ينتقل إلى حرّان ،محاولاً بشتّى الوسائل إغراء الشباب على العمل مع الشركات الأمريكيّة، ولا يكتفي بذلك ، بل يلجأ إلى خديعة أبناء وطنه ويقنعهم ببيع أراضيهم بثمن بخس .

لقد أدرك السلطان خزعل المخلوع وهو في (بادن بادن) بألمانيا خطأه عندما تسامح بدخول الموجات الغربية ، ولكن بعد أن فقد عرشه ، بل بعد أن فقد وطنه ، هذا الإحساس ليس معرفة تفترض الحل الأشمل من العمق إلى السطح ، إنما هو إحساس بافتقاد السلطة ، يقول :

" إن الحياة قد تغيرت كثيراً عن السابق ، ويعتبر نفسه أحد الذين تسببوا في هذا التغيير نتيجة التساهل والسماح بوصول الأجانب ، وقال أخيراً ، وإذا الوجدان ما صحي والناس ما رجعوا إلى حليبهم فالأيام الجاية أصعب من اللي راحت .... " [1] .

لكن الحكيم . صبحي المحملجي . رمز الانتهازية والخبث في خماسية مدن الملح ، البطل المستثمر ، يتدخل ليوضح للسلطان المخلوع أهمية تدفق الأجانب ، وهذا الرمز جاء من خارج الجزيرة بعد أن تربى تقنياً وسياسياً على ثقافة الخارج (التبعية دون الوطنية) يقول :

" يجب أن يتم العمل على خطين ، خط الداخل وخط الخارج .... والقرف الذي يعيش فيه أوجد ارتباطاً وثيقاً بين موران والدول الأخرى ، وخاصة الولايات المتحدة ولذلك يجب أن نعمل على هذا الخط ... " ، تزايد أهمية السلطنة للاقتصاد العالمي يترافق مع انتقال القرار من الداخل إلى الخارج ، إذ كلما أصبحت أكثر أهمية أصبحت أقل قدرة على اتخاذ القرار" [2] .

نلمس في النص السابق نصين متداخلين :

الأول : ينم عن هزيمة معترف بها على لسان السلطان خزعل المخلوع .

والثاني : ينم عن معرفة بالجيل الجديد المنقطع عن الأرض وتاريخ البشر عليها ،الذي يتضاءل الوطن في تصوراته ، كلما تضاعفت ثروته ، واتسعت ملكيته المادية والسياسية .

إذ تبدو دراما الشعب ، على اتجاهين : اتجاه الغزو الأمريكي ، واتجاه انفصال السلطان عن تاريخ شعبه وأمته، إن شعباً كشعب . موران . رمز الصحراء (الجزيرة) وآسيا العربية (الشرق) غير مسلح بأدوات سياسية أو غيرها لمواجهة الداخل (السلطان) والخارج (الغرب الأمريكي) .

وقد أعطى (منيف) دوراً للحس الشعبي في الرفض ، عندما تحدث عن جازي الهذال ، الذي قاوم المرحلة العثمانية (تركيا) لكن المقاومة تلك كانت معقولة ، إذ لم يكن الخارج (تركيا) مستعلياً على الداخل (العالم الإسلامي) هذا الاستعلاء ، وهذا التفوق للخارج المعاصر (أمريكا) على الداخل المهزوم (الشرق) لذلك لم يعط دوراً بطولياً فارقاً لابنه (متعب الهزال) الذي رفض ثم قاوم ثم اختفى ، ومع اختفائه تتأجل عملية المقاومة ريثما تتضح ظروف أخرى ، من خلالها ترتسم عملية المقاومة بأدوات مناسبة للغزو .

لقد أدان منيف الدّاخل (وادي العيون) في الرّواية ، أسلوب الحياة الشرقية القائم على النمطية الأحادية وعلى السكون ، وقد أظهر أن العالم الآخر . الغرب . يتحرك ، يتشكل ، يتعدد ، يقوى ، وإنّ ازدياد الفارق أدى إلى تحوّلات المكان في الجزيرة العربيّة ، يقول في الجزء الثالث من الخماسيّة وقد عنونه بـ (تقاسيم الليل والنهار) :

" العالم كلّ العالم في ذلك الزمن الرجراج المليء بالتوقّع والاحتمالات .... السريع كبرق السّماء .... هكذا

---

[1] **منيف،عبد الرحمن ،مدن الملح ،ج1 (التيه)، ص27.**

[2] **المصدر السابق ، ص28.**

العالم في مطالع هذا القرن ، أمّا موران هذه الصحراء الغارقة في الرمال والنّسيان فكان أمراؤها يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور .... " [1] .

– تأثير المكان في البشر :

وإذا كانت التحولات الكبرى في المكان نتيجة فعل البشر (الغرب) فإنّ المكان ترك تأثيرات في البشر

وهذا ما نلتقي به في أجزاء الرّواية كلّها، إذ تتلاحق الإشارات التي تربط تكوين الناس أفراداً وجماعات بطبيعة تكوين المكان الصحراوي سواء أكان الناس مستقرين في المكان أم كان وجودهم فيه طارئاً ومؤقّتاً" بشر وادي العيون إذن مثل أهله : إذا ازدادوا عن حدّ معين فلا بدّ أن يفيضوا ، أن يتدفّقوا إلى الخارج" [2] .

إنّ معظم هذه الإشارات الخاصّة بهذا الاتّجاه كانت بلسان الغرباء الحائزين على قسط وافر من الثقافة والتعلّم ، وهذا ما يؤدّي إلى تحقيق أمرين :

الأوّل : إعطاء التأثير المكاني درجة كبيرة من الوضوح بحيث يلحظه الغريب بسرعة .

الثاني : إعطاء صياغة فكرة التأثير عمقاً فكريّاً وفلسفيّاً يكتسب شيئاً من المصداقيّة وإمكانيّة التحقّق حين يتمّ إجراؤه بلسان شخصيّة متعلّمة .

يواصل عبد الرَّحمن منيف اهتمامه بتأثير المكان في البشر من خلال المناقشات التي كانت تدور بين شخصيّات الرّواية، من بينها الأمريكي (سنكلر) الذي يقول عن سكّان الصّحراء: " لا يمكن لأحد أن يفسّر الحزن الذي يعيشه هؤلاء إلاّ إذا عرف الصّحراء، وعاش فيها . هذه الصّحراء الملعونة ،لا تلد إلاّ مثل هؤلاء البشر ومثل تلك الحيوانات التي رأيناها ونحن آتون"[3].

إنّ عبد الرَّحمن منيف يواصل مساره الروائي في اكتشاف الروابط بين البشر والأرض ، وتبدو هذه المواجهة أحياناً بلسان الكاتب السارد ،كما في حديثه عن الأمريكيين المتوغلين في الصحراء في أثناء مدّ أنابيب النّفط بين وادي العيون وحرّان " إنّهم هذه المرة في الصّحراء وسط الجحيم الحقيقي ، فإذا كانوا قد تعودوا الرجوع آنذاك إلى المعسكر كلّ يوم والغرق في برك السباحة أو الغرف المبرّدة ، فإنّهم الآن هنا مثل الحيوانات المحاصرة بالنيران كانوا يتراكضون في كلّ الاتجاهات ، ويصرخون ويتعاركون " [4] .

وقد تبع هذا التّغيير الديموغرافي تغيّر سيكولوجي عميق، ومن مظاهره أن المشردين بدؤوا يفقدون الإحساس بالأمان ، ويعانون من الاغتراب والضياع نتيجة التحولات الكبرى التي أصابت المكان ،فشرّدت العائلات ، وأرغم النّاس على بيع أراضيهم ،وذلك باللجوء إلى التهديد والوعيد أو بالترغيب وإيهامهم بحياة سعيدة في مكان أخر .

هذا التّغيّر أصاب أيضاً شريحة العمال والحرفيين التي ظلّت قريبة من حفّارات النفط ومعسكر الأمريكيين في (حرّان) فصدمت سيكولوجيّاً ؛ لأنّ هذا التّغيّر المفاجئ أفقدهم صوابهم وهزّ قيمهم وعاداتهم ، ولذلك فإنّ بعض العمال لم يستطيعوا البقاء في معسكر العمل ، فسرقوا الجمال وهربوا .

إنّ اختلاط العمالة الوافدة وتزايدها نتج عنه تغيّر عميق في البنية النفسيّة والاجتماعيّة ؛ فالناس فقدوا الإحساس بالتضامن والتآلف والتماسك ،وأصبحوا يعانون من الشعور بالانفصال عن الآخرين ، وهذا ما يتجلّى في شخصيّة

---

[1] منيف ،عبد الرحمن ، مدن الملح ،ج3 (تقاسيم الليل والنهار)ص29.

[2] المصدر السابق ،ج1(التيه)، ص10.

[3] المصدر السابق ،ج1(التيه)، ص352.

[4] منيف،عبد الرحمن ،مدن الملح ،ج1 (التيه)، ص352.

(فواز)بن (متعب الهزّال)الذي عرف بالتواصل مع الآخر ، فبدأ الإحساس بالتضامن والتآلف يشعره بصدمة الانعزال بين شريحة العمال غير المتجانسين الذين يقيمون في مخيمات شركة النفط بـ(وادي العيون) " لم يحسّ فواز بالخوف كما أحسّ هذه المرّة وفي هذا المكان . كيف ينام هؤلاء الناس وأين ؟ كيف يأكلون؟لماذا يختلفون عن الناس في (وادي العيون)أيام كانوا فيه ، وعن الناس في (عجرة والمشتى وحدرة) ؟ بدا له أنّ كلّ واحد من هؤلاء يعيش بمفرده ، وليس له صلة ، من أي نوع ، بالآخرين" [1] .

ويبدو واضحاً أنّ الهويّة المحليّة تتدجّن، وتبدأ بالزوال شيئاً فشيئاً ، ويؤدي ذلك إلى" أنّ العرب البدو يقتلعون من جذورهم ويضيعون في (تيه) المدينة الجديدة التي تتناقض مع ثقافتهم وتجاربهم التي شكّلت تراكماً في الذاكرة الجماعيّة على امتداد القرون " [2] .

إنّ مفهومي الأصيل والدخيل في رواية عبد الرَّحمن منيف (مدن الملح)شكّلا ثنائيّة كشفت عن غياب لحظة الوعي عند الأصيل ،ولحظة الافتراس المخبوءة وراء ستار معطيات الحضارة والتقدّم العلمي عند الدخيل. فالدخيل لا يريد من الأصيل إلا التبعيّة والخضوع والخنوع ، لا يريد له تقدّماً وقوّة وحياة كريمة ، بل يريد أن يفرّغه من الداخل نفسيّاً وعقليّاً ؛ وبالتالي أن يسلب من هويته ، في الوقت الذي ينهب فيه ماله ونفطه ومقدراته . لهذا تبدو رواية (مدن الملح) صرخة تحذير فنيّة ،أراد لها صاحبها أن تلامس المشاعر والوجدان ، لتدخل إلى العقول ،وتترجم فعلاً إيجابيّاً يلمّ ما تشتت قبل أن يضيع .

خاتمة

يتضح مما تقدم أنّ عبد الرَّحمن منيف أعطى المكان أهمية كبرى ، لا بوصفه جزءاً مادياً جغرافياً ، بل بوصفه وطناً متوارثاً عبر أجيال وأجيال ، وهو في أجزاء الرّواية كلها يصوّر المكان بأبعاده النفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة .

لم يكن المكان بمعزل عن بقيّة العناصر المشكّلة للرواية عند منيف ، حتى غدا مع البشر والتاريخ ، في حالة هارمونية ، من العسير فك الارتباط بين هذه المتآلفات ، بل نراه يلحّ على ربطه ببقيّة عناصر الرّواية ،ولاسيما الشخصيّات والزمان ، وهذا ما أدى إلى اكتساب المكان قدرة إيحائيّة من خلال صراع الشخصيات فيه ، يتأثر بها وتؤثر فيه ؛لأنّ علاقة التأثر والتأثير متبادلة بينهما .

حديث المكان في رواية (مدن الملح) ليس له نهاية ، بل مثّل في مخيلة منيف امتداد الأرض العربيّة ، وما تحمله من اتساع وقسوة وغرائب ، إنّه حديث الحياة بكلّ ما فيها من متناقضات وتحولات وانكسارات .

وعلى الرغم من التحوّلات الكبرى التي طالت الإنسان والشجر والحجر تبقى لحظة الولادة رهناً بيقظة هذا الشرق ، الشرق العربي ، ولحظة الولادة أكدها منيف كثيراً في رواياته(شرق المتوسط) و (قصة حب مجوسية) و (الأشجار واغتيال مرزوق) ...(ومدن الملح) وهو يرى أنّ وجود الموت الذي جلبه تخلف أهل الصحراء . الجزيرة . آسيا العربية (الشرق) هو موت مجلوب، موت مفروض ، غير أنّ الحياة التي يمكن أن تبقى قائمة في الشرق حياة لها جذور عميقة نامية ،وساق قوية ، وأغصان فارهة ، لكنّ الخريف امتدّ طويلاً ، وعلى عناصر الحياة أن تصنع يخضورها بفعل التواصل بين تربة الجذور(الداخل)وضوء الشمس(الخارج) للنهوض من كبوة الركود والضياع .

---

[1] **المصدر السابق،ص132.**

[2] **بوشعير ، د. الرشيد،مساءلة النص الروائي ، وزارة الثقافة،دمشق، 2004،ص163.**

المصادر والمراجع

المصادر :

– حين تركنا الجسر ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر . ط5 ، بيروت 1990.

– قصّة حبّ مجوسيّة ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر . ط5 ، بيروت 1990.

–الأشجار واغتيال مرزوق ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر . ط6، بيروت 1992.

–خماسيّة مدن الملح ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر .ط4، بيروت 1992.

–شرق المتوسط ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، ط9 ،بيروت 1993.

–النهايات، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر . ط3، بيروت 1994.

– الآن..هنا، أو شرق المتوسط مرة أخرى . المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر . ط5 بيروت 1997.

المراجع:

–باشلار ،غاستون،جماليات المكان، ت(غالب هلسا)، بيروت،ط2 ،1984 .

–بوشعير ،د.الرشيد،مساءلة النص الروائي،وزارة الثقافة،دمشق،2004.

–سليمان ،نبيل،فتنة السرد،دار الحوار ،اللاذقيّة ،2000.

–صلاح،صالح،قضايا المكان الروائي، وزارة الثقافة ،دمشق ،1993.

–صالح،د.صلاح،الرّواية العربية والصحراء،وزارة الثقافة،دمشق،1996.

–الفيصل ،د.سمر روحي،بناء الرّواية السوريّة، وزارة الثقافة ،دمشق،ط1 ،1995.

–منيف،عبد الرَّحمن،الكاتب والمنفى،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط2،بيروت،1994.

–يونس ،د. صلاح ، المؤثرات الغربيّة في الرّواية السياسيّة العربيّة ، أكاديميّة العلوم الروسيّة ،موسكو 1993.